قضية الحرية عند مصطفى محمود

طارق أحمد آهنغر[١]

وغوهر أحمد كمار[٢]

الملخص

إن الحريّة ظلت دائما مأكل الفكر الإنساني، وقدّم أبرز الفلاسفة، والمفكرين، والأدباء، والكتاب وجهاتهم النظرية المختلفة حولها، ويعطي كل منهم فهماً يخالف الآخر، فالذي قال بالحرية المطلقة، أفرط عند هيجل لأن الحرية عنده ليست فقط استقلال الفرد، بل هي تصالح بين الفرد والمجتمع أو بين الإرادة الفردية والإرادة الكلية، ونفس السلوك نجده عند مصطفى محمود فإنه تناول موضوع الحرية في كثير من مؤلفاته واستقل لها مقالات عديدة، وليس له موقفا ابتذل بكثرة التناول عند أمثاله، بل أعطاه مسحة فلسفية فريدة، وفسّره تفسيرا غير مسبوق، لأنه بدأ بالمفاهيم من جديد، نراه من أول عهد كتابته يطرح فكره في الحرية بحيث يربطها بالتقدم، وأحيانا بحلم المجتمع ويعطيها المعنى الجدلي، وأحيانا بالشرّ، وأحيانا يتحدث عن حرية الإنسان ضمن مشيئة الله، لذلك يستحق أن يُستخرج مجموعُ ما قاله في هذا الموضوع، وأن تؤلَف رؤيته الشاملة في ترتيب منطقي، فيهدف هذا البحث إلى إبراز رؤية مصطفى محمود عن الحرية، وربط عناصرها المنتثرة، وتحليلها في أعماله.

الكلمات المفتاحية: حرية، إنسان، الإسلام

---

[١] الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة كشمير سرينغر. الهند

[٢] باحث الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة كشمير سرينغر. الهند

مفهوم الكلمة "حرية"

لغة: "الحرُّ" بالضم من الرمل ما خلص من الاختلاط بغيره، و"الحرُّ" من الرجال خلاف العبد مأخوذ من الرّق وجمعه (أحرار) ورجل (حرّ) بيّن الحريّة"[١]

اصطلاحا: التعريف بالحرية أمر صعب لما يشمل من معان كثيرة، لكون مفهومها مختلفا عند كل فئة من الكتّاب كعلماء الدين والأدباء والنقاد والفلاسفة وخبراء السياسة وعلم الاجتماع، ولكننا نذكر على الأقل ما وقف عليه الجرجاني، فقد قال:" الحرية الخروج عن رق الكائنات، وقطع جميع العلائق والأغيار"[٢]. وبعد التتبع للمقالة سيتضح للقارئ مفهومها من زواياها المتعددة.

حرية الفرد

يتحدّث مصطفى محمود عن القوى التي تسلب حرية الفرد رغم بلوغه قمم الحضارة، فإن السلطات الظالمة القديمة لم تندثر، بل ظهرت في أشكال جديدة كالرأسمالية التي تقتل الفرد تحت ضغط الضرائب الهائل، والتطرف الديني الذي يغلق أفق فكر الفرد، وكل هذا يمنع الفرد من كسب حريته، فيقول مصطفى محمود في هذا الصدد "لقد كان الطغاة القدماء يكتسحون الأرض بسكانها ويحوّلون الكل إلى عبيد أرقاء، ثم تطور الطغيان... فأصبح الغازي يكتفي بأن ينهب الأرض ويترك سكانها أحرارا ليعتصر دماءهم في الضرائب.."[٣] ويقول " وأصبح الطاغية إذا أراد أن يشنق على راحته أطلق على المشنقة كلمة الكنيسة، وبدأ يشنق تحت ستار الدين والرب،

١: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. المصباح المنير. دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص: ١٢٨

٢: الجرجاني، علي بن محمد بن علي. دار الديان للتراث، ص: ١١٦

٢: محمود، مصطفى، الله والإنسان، دار الجمهورية، ص ٧٠

والوصايا العشر" [١] ثم ينصرف إلى القول بأن الإنسان لا يتقدم حقا إلا إذا فُكت أغلال العبودية الجديدة من عنقه، ومُنح حرية الفكر والتعبير عنه، وذلك يتحقق بالعلم، فهو الذي يحرّر العقل من الجهل ويمهّد الطريق الى الحرية كما يقول: "إنما معنى التقدم في شيء واحد... الحرية... الحرية في ذاتها تحتاج إلى علم، وصحة، وقوة، وسرعة لتتحقق على نطاق واسع وتصل إلى كل الناس... كما يصل إليهم الماء من الصنبور كل يوم"[٢] ولماذا العلم! لأن العلم يفتح أبواب الحرية كما أن الإنسان حرّر نفسه من قيد المسافة بالتجارب العلمية التي أنتج بها الوسائل التي يتصل بها بأقرباءه من خلال الموجات اللاسلكية، ولو يبعث أحد عاش قبل خمسة قرون لمات دهشة لما بين يديه من الوسائل العلمية لأنه كان مستحيلا له في وقته، وكل ذلك لم يمكن إلا بعد أن أطلق لجام فكر الإنسان، فأطرق رأسه مفكّرا في قوانين الطبيعة، وتفاعل معها ليحقق حرّيته كما يقول مصطفى محمود "الحرية لها طريق واحد إذا كانت تهدف إلى النمو هو تسلّق القانون والانتفاع به بالنظام وتلبس القوى الخام في الطبيعة... إن شلالات نياجر ظلت تنحدر في طريقها ألوف السنين حتى جاء رجل صغير ووضع في طريق الشلال عجلة، فانطلقت طاقة هائلة من الكهرباء أضاءت مدينة... إن الكفر بحرية الإنسان جريمة أقبح من القتل."[٣]، وحرية الفرد لا تعوق حرية الآخرين بل تضيف إلى تصرف الكل كجزء له.

الحرية حلم المجتمع

إذا نتعمق أكثر في فهم فلسفة الحرية عند مصطفى محمود نجدها تضاهي أكثر الشيء بفلسفة **المثالية التاريخية (Historical Idealism)** عند هيجل التي تنص

٣: نفس المصدر، ص٧١

٢ نفس المصدر، ص٧٣

٣ نفس المصدر، ص٢٩-٣٠

بأن غاية الإنسان هي بلوغه إلى الحرية المطلقة[١] من خلال **الروح الموضوعية (Objektiver Giest)**، وهي ليست "روحًا غيبية"، بل تعني **المؤسسات والنظم والقوانين والعلاقات الاجتماعية** التي يعيش الفرد من خلالها. مثل: العائلة، والمجتمع المدني، والدولة، والقانون، وهي المجال الذي تتحقق فيه الحرية بشكل **مشترك ومنظم**، وليس بشكل عشوائي أو فردي، ونفس الشيء نجده عند مصطفى محمود حين يقول: "منذ ثلاثة آلاف سنة والإنسان يحلم بالطيران في الجو... وفي الخرافة الإغريقية طار ايكاروس في الهواء... ولكن أجنحة التي كانت لاصقة بالشمع ذابت تحت أشعة الشمس... فوقع في البحر ومات... ولم يمنع هذا ليوناردو دافنشي من أن يحلم هو الآخر بالطيران ويكتب في مذكراته هذه الكلمة الغريبة: "سوف تكون أجنحة" ولكن ليوناردو دافنشي مات.. ومات من بعده ملايين... وأخيرا طار الإنسان... لقد نجحت الحياة أخيرا... أخفق الفرد ونجح الكل"[٢]، وقد سمّاه بالخلود لأن الفرد يقدّم حسب المقدور، ثم يليه الآخر فيضيف إلى ما مضى تقديمه، ثم يليهما الآخر يلونه بلون آخر، فهكذا يعيش الأول كعضو لهذا الهيكل الإنساني.

الحرية المطلقة

إن الحرية التي قال بها العدميون (Nihilists)، والفردانيين(Individualists)، الوجوديون(Existentialists)، لم يقتنع بها مصطفى محمود قط، ولم أعثر على أي عبارة من مقالاته تؤكد صحة هذه الحرية حتى في مرحلة الشك من حياته التي انتقد فيها المسلمات الدينية، ونبذ بعض المعتقدات، والحرية المطلقة تعني بأن يطلق الإنسان أهواءه تشبع، ويفعل ما يشاء، ويعبّر عما يشاء ولا يكون هناك عقبات توقفه، أو قيود أو نظام يحكم عليه، وهذه الفكرة بقيت سطورا في كتب قائليه ولم

---

١ الحرية المطلقة عند هيجل ليست بأن الفرد يفعل ما يشاء، وإن ضادت حرية الواحد حرية الآخر.

٢ نفس المصدر، ص ١٢٢-١٢٣

تُمارَس قط، لأنه لا يمكن ممارستها في مجتمع إنساني لأن حرية الواحد قد تغاير حرية الآخر، وهو لا يعيش وحده في دنياه يصبح حيوانا لا يسأل عليه، ويقطف ثمرة لا تكون سرقة، ويصرخ ولا يزعج غيره، وهذا يبدو وهميّا لاستحالته فعليا، كما يقول مصطفى محمود: "إذا كنت رجلا خرافيا مثل السندباد البحري... تعيش وحدك في جزائر واق الواق... فإن حريتك لن تكون مشكلة... سوف تكون وحدك لن يكون هناك صوت إلى جوار صوتك... ولا حرية تزاحم حريتك"[١]، وهو مع ذلك يأتي بنفس الفكرة بأن الحرية لا توجد إلا في مجتمع فهو يقول: "ولكن الأمر يتغير تماما حينما تكون واحدا من ألوف مثلك تتعايشون معا في مجتمع... كل واحد حرّ... وكل **يريد**... وكل واحد يحلم...وكل واحد يرغب... سوف تكون حريتك محاصرة بحرية الآخرين... ورغباتك محاصرة برغبات الآخرين... وستجد نفسك في حرب لإخلاص منها إلا بعقد اتفاق... وتأسيس شركة اجتماعية... وتنظيم علاقات... وفرض واجبات، وإنشاء حقوق... وعيب... وأصول... ويليق ولا يليق..."[٢]، ولأن المجتمع يعمل كشركة، والوظائف فيه متوزعة بين أعضاءه، الواحد يريد أن يعمل طبيبا، والثاني معلما، والثالث جنديا، فعندما يمرض الجندي، يزور طبيبا، والطبيب يزاول الطب مطمئنا تحت صيانة الجندي، والمعلم يعلم أبناءهم، بذلك يتمكن الواحد من أن يستمتع بحرية الآخر، بينما يستحيل للإنسان أن يكون جنديا يحمي القوم، وطبيبا يعالج المرضى، ومهندسا يبني العمارة، وفلاحا يزرع ويحصد في الوقت نفسه، والمجتمع شيء طبيي لأن كلا منا يولد وله جانب التفوق، وميوله تختلف من الآخر، فيصبح ما يريد حسب ميوله ويضيف إلى المجتمع تبعا لقدرته، فيموت ويولد الآخر أو يكون موجودا مع نفس الميول يلعب دوره على نفس الفكرة، وأنت تستفيد بما أتوا به هذه الأجيال،

---

١ محمود، يوميات نص الليل، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، ص:٩٤

٢ نفس المصدر، ص: ٩٥

وفي هذا المسار التاريخي تُفتح آفاقا جديدة كمجتمع، وفي هذا السياق يقول مصطفى محمود "شركة مساهمة(مجتمع) يدخل فيها كل واحد بقسط... وفائض الأرباح يتحول إلى مزيد من الحرية للمجتمع...كل ما يصنعه الغير تجده في خدمتك وتحت تصرفك... وراء هذه الحرية التي تتمتع بها دون أن تشعر، تختفي جهود الملايين: جهود العلماء، والمفكرين، والاقتصاديين الذين صنعوا الطائرة، والقاطرة، والسفينة... والأقساط التي دفعها أجدادك من حريتهم... أنت تجني أرباح الشركة المساهمة التي اسمها "المجتمع".

حرية الإنسان ضمن مشيئة الله

هذا لون آخر من رؤية مصطفى محمود للحرية، وهذا يختلف عمّا قد سبق في بعض الأشياء، إذ يتناول سؤالا جوهريا: "هل الإنسان مخيّر أم مسيّر تحت إرادة الخالق؟" يعني هل هو مطلوق الأيدي في كل ما يفعله أم هو مجبَر على أفعاله خيرا كان أم شرا؟، وقد تناول هذا الموضوع في عدة مواضيع في مقالاته مستدلا بالآي القرآنية، فهو يوضح أن الإنسان عاجز عن التصرّف في مسائل الخلق والكون، فلا يملك أن يخلق نفسه أو يختار موضعا لميلاده ويحدد زمانه، ويهيّأ نفسه، ويصوّر شكله في بطن أمه، وليس كل هذا بصدفة، بل هي بيد الله الخلاق المصوّر المدبّر كما ينص عليه قول مصطفى محمود: "حرية التصرّف في الكون وهذه ملك لله وحده... نحن أيضا لا نقول بهذه الحرية: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾- (القصص: ٦٨) ليس لأحد الخيرة في مسألة الخلق، لأن الله هو الذي يخلق ما يشاء ويختار"[١].

والحرية التي مُنحها العبد هي حرية في مجال التكليف، وذلك بعد أن يبلغ الحلم، ولو كان الإنسان مسيّرا بالكامل لمّا صحت مساءلته يوم الجزاء، ولأصبح كدمية يسير

١ محمود، مصطفى، حوار مع صديقي الملحد، مكتبة مصر، طبعة ٢٠١٣، ص: ١٣

ويحرّكه صانعه بلا إرادة، وهذا يتناقض مع معنى الحساب والمسؤولية، فالحرية إذن حقيقة مقرونة بالمساءلة، فهو إذا اختار بحريته خيرا يوفقه الله إليه ويسهل له سبلا، وإذا اختار شرا يمهل له ليعود مستغفرا إلى أن يوفيه الأجل، ومع ذلك، فإن كل ما يفعله الإنسان، من خير أو شر، لا يخرج عن مشيئة الله؛ لأنه تعالى أراد أن يمنحه الحرية، فكان اختياره جزءًا من مشيئته. وهنا يقول مصطفى محمود "إن حريتنا كانت عين مشيئته، ومن هنا معنى الآية (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**-الإنسان:٣٠)[١]،

والإنسان قد يفعل بحريته ما لا يقتضي الرضا الإلهي ولكنه مع ذلك لا يخرج من مشيئته لأنها من معطيات الله من الأساس، وبالتالي لا يُنسب فعل الشر من قبل الإنسان إلى الله لأن الإنسان يختاره بحريته، هنا يقول مصطفى محمود "إن الإنسان قد يفعل بحريته ما ينافي الرضا الإلهي ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما ينافي المشيئة... الله أعطانا الحرية أن نعلو على رضاه (فنعصيه)، ولكنه لم يعط أحدا الحرية في أن يعلو على مشيئته...[٢]

والإنسان يفوق الملائكة بحريته فقط، لأنه يعبد الله بحريته أو بإرادته بينما الملائكة خاضعة لأمر الله، ولا تختار ما تريد، بل تفعل ما يريده الله دوما، ولذلك تعلو عبودية الإنسان عبودية الملائكة، إن لم يعص الله، ويتق عن حدود الله، ويفضّل طرق الخير لطلب رضاه، ففيه شهوات، وأمامه سبل محرمة لقضاءها، ولكنه يقمعها، وفيه غضب ولكنه يلجمه نظرا لأمر الله... وبيد الله أن يخلق الإنسان خاضعا مطيعا دائما كالملائكة كقوله تعالى: (**إن نشأ ننزّل عليهم من السماء ءاية فظلّت أعنقهم لها خضيعين**-الشعراء:٤)، وفي موضع آخر (**ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلكم جميعا**- يونس:٩٩)، ولكنه يمتحنه بحريته: هل يفضل طاعته على المعصية مع

---

١ نفس المصدر، ص:١٦

٢ نفس المصدر، ص: ١٦

أن داخله ميول إلى قضاء الشهوات المحرمة.

الحرية تجلب الشر

لما أُعطي الإنسان الحرية، فكان لابد من أن يقع في الشر أيضا، ولكن علم الله السابق أحاط طبيعته وأعطاه مع كل خطأه مهلة للعودة، وفرصة لمحوه، وكلما أصرّ الإنسان على فعل وفق هواه ولا وفق ما يريد الله منه، جلب لنفسه شرا، لأنه لا يستطيع أن يدرك بحواسه المحدودة بالحقيقة، كما يقول مصطفى محمود: "كان لا بد لتوجد حرية أن يلازمها الشر كعرض من أعراضها... فالحرية تستدعي الاختيار الحر... وتستدعي أن تكون للإنسان إمكانية الصواب...وإمكانية الخطأ... وحرية أن يفعل ما ينفعه أو ما يضره... ولو أن إراته اقتصرت على توجيهها إلى النافع لما كان بذلك حرا "[١]، والإنسان يختار في كل لحظة، ويوقع نفسه في المخاطر بالحرية وللحرية، ويدفع ثمنه، فهو مسؤول لهذه الأمانة الثقيلة، يقول مصطفى محمود في هذا الإطار: "وما خطيئة آدم إلا رمز للحرية... حرية المخلوق في مواجهة الخالق... لقد أراد آدم أن يفعل ما يشاء لاما يشاء الله... هكذا أخرجت آدم حريته من الجنة... لأنه أراد أن يفعل ما يشاء!، وما زال أبناءه يصرّون على أن يفعلوا ما يشاءون، ويعيشوا أحرارا... وبالحرية وللحرية نتعذب ونعاني، ونتخبط بين السبك والمذاهب... ونخوض الحروب والمجازر والمذابح"[٢]

الخاتمة

إن قضية الحرية عند **مصطفى محمود** تمثّل رؤية فكرية متميزة، إذ جمع فيها بين الأبعاد المختلفة كالفردي، والديني، والاجتماعي. فهو لم يكتفِ بطرح الحرية كحق

---

١ محمود، يوميات نص الليل، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، ص: ٢٢

٢ نفس المصدر، ص: ٢٣

فردي أو مطلب اجتماعي، بل ربطها بمسؤولية الإنسان أمام نفسه وأمام المجتمع. وقد تناول الحرية من زوايا متعددة؛ حرية الفرد في مواجهة الاستبداد والقيود، وحرية المجتمع في تحقيق التقدم عبر تراكُم جهود أفراده، ورفضه لفكرة الحرية المطلقة التي تنفصل عن القيم والقيود الأخلاقية.

وقد أتى مصطفى محمود بفكرة أن الحرية لا تتحقق إلا بالعلم الذي يخلق في الإنسان الإرادة الواعية، وأنها ترتبط دائما بالاختيار، بما فيه من إمكانية الخير أو الشر. فهي ثقل مسؤولية قبل أن تكون شرفا وتفوقا، وهي تكليف قبل أن تكون سلطة. ومن هنا، يمكن القول إن فكره يقدم تصورًا متوازنًا للحرية، يبتعد بها عن الإفراط، ويضعها في إطار إنساني، وروحي شامل، يجعلها من أهم القضايا التي تُغني العقل الإنساني وتُلهم الفكر الفلسفي المعاصر.

المصادروالمراجع

١. محمود، مصطفى، الله والإنسان، دار الجمهورية

٢. محمود، يوميات نص الليل، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣

٣. محمود، مصطفى، حوار مع صديقي الملحد، مكتبة مصر، طبعة ٢٠١٣

٤. عزالدين، مجدي، مآلات فلسفة الروح عند هيجل، متاخمة نقدية لأيديولوجية تمجيد الذات الغربية، مجلة "الاستغراب"، العدد: ١٤، يناير\١٦\٢٠١٩

5. JEAN PAUL SARTRE'S ABSOLUTE FREEDOM AND ITS ETHICAL IMPLICATIONS, Written by Ebo, Henry Obinze, PhD Directorate of General studies University of Agricultural and Environmental Sciences, Umuagwo, Imo State and Okewu, and Michael Peter Claretian University of Nigeria Nekede, Published in Aquino Journal of Philosophy, Vol 4 Issue 1, January 2024

6. A philosophy that seeks to understand the meaning of life—or lack thereof, Written by Zuva Seven on the website verywell mind, https://www.verywellmind.com/what-is-nihilism-5271083?utm
7. Individualism, Written by Steven M. Lukes on the Website Britanica, https://www.britannica.com/topic/individualism?utm